

من خطب آية الله الراضي

ضرورة المعرفة والعلم وضرر الجهل (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَسْتَهْدِيهِ وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا مَنْ يَهْدِي اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ . وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَنْتَجِبُهُ لِوَلَايَتِهِ وَاخْتَصَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَأَكْرَمَهُ بِالنُّبُوَّةِ أَمِينًا عَلَى عَيْبِهِ وَرَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ . وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَعَلَيْهِمُ السَّلَامُ^١

لا يمكن لأي أمة من الأمم أن تتقدم وأن تشق طريقها في الحياة مرفوعة الرأس إلا بالعلم والمعرفة والقضاء على الجهل ومنابعه.

تحدثنا أكثر من مرة عن أهمية العلم والمعرفة وحديثي الآن هو عن معطيات الجهل في العاجل والآجل فإن العلماء يعتبرون الجهل هو الموت الأكبر للأفراد والجماعات والمجتمعات، وهو منشأ الفساد في الكون كله، وإذا ما قدر له أن ينتشر فإن الناس لن يروا النور ولن يروا السعادة في حياتهم، بل يمكن أن يقال بكل قوة وجدية أن سبب خسارة الإنسان في الدنيا والآخرة هو الجهل، وفيما يرجع إلى الآخرة فإنه يجر صاحبه إلى عذاب السعير، وقد تحدث القرآن الكريم في أكثر من مناسبة عن الجهل وضرره.

وهنا أتحدث عن الجهل في عدة محاور:

المحور الأول: الجهل مصدر انحطاط البشر:

ليس المراد هنا بالجهل مجرد عدم الاطلاع على الشيء وإن كان هذا قسماً منه بل المراد منه هو عدم استعمال أدوات المعرفة في وظائفها الحقيقية التي خلقت من أجلها فالسمع له وظيفة خاصة يجب أن يستعمل فيها وهي استماع الحق وكذلك اللسان والبصر والقلب وبقية الحواس .

قال تعالى: **{ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ }** (٢٢) سورة الأنفال.

الدابة ما تدب وتمشي على وجه الأرض سواء أكان الإنسان أو بقية الحيوانات، والآية تتحدث عن الإنسان خاصة وتضرب مثالا لمن لا يستعمل وسائل المعرفة في مواضعها كحيوانات الصم البكم التي لا تعقل وهي أشر الدواب فكذلك مثل هذا الإنسان الذي لم يستعمل سمعه وبصره وقلبه لما خلقها

^١ الكافي ج: ٣ ص: ٤٢٢ في الصحيح عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي حُطْبَةِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ.

الله لها ولم يستعمل لسانه لما خلق له ويتحول هذا الإنسان من ذي عقل إلى إنسان حقيقة لا يعقل وإن كان الناس يطلقون عليه أنه عاقل.

إن الإنسان متى ما ترك الاستعانة بوسائل المعرفة التي منحها الله إياها فسوف ينحط إلى أسفل السافلين بل إلى جهنم ويكون أضل من الدواب، قال النحاس حول هؤلاء الأشخاص: (أي هم بمنزلة الصمّ في أنهم لا يسمعون سماع من يقبل الحقّ، وبمنزلة البكم لأنهم لا يتكلمون بخير، ولا يعقلونه)^١ ويتضح معنى هذه الآية أكثر وأنها تشير إلى الأشخاص الذين لم يستفيدوا من وسائل المعرفة التي وهبهم الله إياها، عند قراءة الآية السابقة لها حيث تقول: **{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ}** (٢١) سورة الأنفال. فهم يدعون أنهم يسمعون سماع الأصوات والذبذبات والقرآن ينفي عنهم السمع المفيد، قال النحاس: (لأنهم استمعوا استماع عداوة)^٢ واستماع العداوة خارج عن وظيفة وسيلة السمع ويزيد توضيحاً لمعنى الآية قراءة الآية اللاحقة لها حيث يقول تعالى: **{وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ}** (٢٣) سورة الأنفال. (أي لو أخبرهم بكل ما يسألون عنه، لأعرضوا وكفروا، معاندة وحسداً)^٣

المحور الثاني : العلاقة بين الجهل وجهنم:

لا بد أن يلتفت الإنسان المسلم الذي يؤمن بيوم المعاد والحساب والمساءلة وتلقي الثواب أو العقاب إلى أعماله الايجابية أو السلبية لوجود العلاقة الوثيقة بين جهنم وبين الجهل وأن جهنم التي أعدها الله للمجرمين العاصين فإن من أهم أسباب دخولها واستحقاقها هو الجهل الناتج عن مقدمات اختيارية أدت به إلى استحقاق دخولها قال تعالى: **{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ هُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}** (١٧٩) سورة الأعراف.

^١ معاني القرآن للنحاس ج ٣ ص ١٤٣

^٢ معاني القرآن للنحاس ج ٣ ص ١٤٢

^٣ معاني القرآن للنحاس ج ٣ ص ١٤٣ .

الآية تتحدث عن وسائل المعرفة والعلم، السمع والبصر والفؤاد وأن الله سبحانه وهبها للإنسان حتى يستفيد منها وإن لم يستعملها فيما خلقت له سوف يكون متعدياً على وظائفها وما وضعت له وسوف ينتهي به المطاف إلى نار جهنم.

معنى كلمة ذراً :

استعملت كلمة (ذراً) في اللغة لأحد معنيين:

المعنى الأول: تعني الخلق^١.

المعنى الثاني: هو الإظهار والإيضاح^٢ وقيل : النثر والنشر ونثر البذور.

فإذا كان معناه الأول : أي الخلق فيكون معنى الآية : إن أولئك الذين وهب الله لهم السمع والبصر والفؤاد (وسائل المعرفة) ولم يستفيدوا منها لا مصير لهم غير جهنم حيث عطلوا تلك الوظائف وما خلت لأجله

وإذا كان معناه الثاني : أي الإظهار : فالآية تشير إلى أن أشخاصاً كهؤلاء سينثرون ويظهرون في

جهنم ، لتعطيلهم وظائف المعرفة والتعدي عليها فقد سمعوا بأسماعهم ما لم يجوز لهم ذلك

وعلى كل حال فهذه الحقيقة تكشف أن عاقبة الجهل وتعطيل وسائل المعرفة ليست إلا جهنم .

قوله تعالى : { كَالْأَنْعَامِ } وصفهم بأنهم بمنزلة من لا يعقل .

قوله تعالى : { بَلْ هُمْ أَضَلُّ } لأن الأنعام إذا أبصرت مضارها ، اجتنبتها أو أكثرها ، ولا تكفر

معاندة^٣

بينما الإنسان يبصر مضاره وإذا هو يقدم عليها.

المحور الثالث: الحقيقة الدامغة التي يعترف بها المجرم:

إن الجاهل هو يكتشف الحقيقة بنفسه ولكن بعد فوات الأوان حيث لا يمكن الرجوع عن الخطأ

الذي ارتكبه ولم يبق إلا العقاب وترتيب الآثار الوضعية، قال تعالى حكاية عن المجرمين: { وَقَالُوا لَوْ كُنَّا

نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ* فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ } (١١-١٠)

سورة الملك.

١ معاني القرآن للنحاس ج ٣ ص ١٠٧ .

٢ المفردات للراغب الأصفهاني .

٣ معاني القرآن للنحاس ج ٣ ص ١٠٧ .

الاعتراف بالذنب والخطأ والرجوع عنه ومحاولة علاجه فضيلة من الفضائل التي تسجل لمن اعترف بها، ولكن مثل هذا الاعتراف قَلَّ مَنْ يملك تلك الشجاعة حتى يعترف به هذا في دار الدنيا وعالم الحس والمشاهدة.

أما في الآخرة فإن الموازين تتغير وسوف يعترف بالحقائق شاء أم أبى وإن كانت مرة واعترافه لا يعد فضيلة، لأن لا قدرة له على إنكاره ولا يجديه نفعاً، وهنا فإن المجرمين الذين وصلوا إلى نار جهنم وأصبحوا من أصحاب السعير أي التي تستعر وتشتعل هؤلاء ذنبهم أنهم لم يستفيدوا من عقوبتهم وعطلوها عن النهوض بمهامها، ولم يصغوا لقول الحق وبهذا أغلقوا أبواب المعرفة والعلم وفتحوا أبواب جهنم ليدخلوها داخرين.

وهذا الاعتراف منهم بذنبهم وأن سبب دخولهم السعير هو عدم الاستفادة من عقوبتهم يدل على أن دخولهم جهنم كان باختيارهم .

المحور الرابع الجهل = العمى:

كثير من المعاني يتحدث القرآن عنها في جانبها المعنوي ولم يرد جانبها اللفظي.

قال تعالى: **{ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَمَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ }**

(١٩) سورة الرعد. فالمراد بالعمى هنا ليس عمى البصر وإنما عمى البصيرة .. عمى القلب الذي يكون صاحبه كاملية الذي قد توقف قلبه ، فالذي يستفيد من العلم إنما هو العاقل وأما الجاهل فلن يستفيد من العلم ولن يتذكر مادام سلطان الجهل مسيطر عليه بل إن الجهل يقضي عليه كالسرطان الذي يقضي على صاحبه فقد روي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قوله (الجهل في الإنسان أضر من الآكلة في البدن)^١ أي مرض السرطان التي ينتشر في البدن حتى يقضي عليه.

فيوجد تقابل بين العلماء والمفكرين من جانب وبين العُمي من جانب آخر. وحينئذ العمى والجهل

سواء قال تعالى: **{ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحُرُورُ * }**

وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ } (٢٢-١٩) سورة فاطر

وعن الرسول صلى الله عليه وآله: (من لم يصبر على ذلّ التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبداً).

^١ عيون الحكم والمواعظ رقم ١٤١١ .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: الجاهل من انخدع لهواه وغروره^١

المحور الخامس: معطيات الجهل وأسلحة الدمار الشامل:

إن وقوع التكنولوجيا الحديثة بأيدي أناس بعيدين عن الله وعن الرحمة سوف يستعملونها لإبادة البشرية وسوف يكونون أشرس من الحيوانات المفترسة، وهذا ما حدث بين الدول الاستعمارية في الحرب العالمية الأولى والثانية التي راح ضحيتها ملايين من البشر وتشوهت ملايين آخر بل أن الدول الكبرى لا تزال إلى يومنا هذا تبيد مئات الآلاف من البشر بحجة الدفاع عن حقوق الناس وإنقاذهم.

ضرر الجهل:

أما ضرر الجهل الذي نتحدث عنه فليس له حد بل يمتد امتداد الزمان والمكان وكما أن العلم والاكتشافات الحديثة تتقدم كذلك في المقابل الجهل يتسع بمقدار اتساع العلم وكما أن العالم يقوى عقله بالمعرفة، الجاهل كلما تقدم زاد جهله كما قال الإمام علي عليه السلام: (إذا شاب الجاهل شبَّ جهله وإذا شاب العاقل شبَّ عقله)^٢.

وروي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: (الجهل مَعْدِنُ الشَّرِّ)^٣

وقال عليه السلام: (الجهل وبال)^٤

وقال عليه السلام: (الجهل مطية شمس من ركبها زلٌّ ومن صحبها ضلٌّ).

وقال (عليه السلام): الجهل أدوأُ الداء.

وقال (عليه السلام): الجهل مميت الأحياء ومخلد الشقاء.

وقال (عليه السلام): الجهل فساد كل أمر.

وقال (عليه السلام): الجهل أصل كل شر.

وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله): ما أعز الله بجهل قط.

وقال الإمام علي (عليه السلام): لو أن العباد حين جهلوا وقفوا، لم يكفروا ولم يضلوا.

^١ عيون الحكم والمواعظ رقم ١١٨١ .

^٢ عيون الحكم والمواعظ للواسطي رقم ٢٩٥٥ .

^٣ عيون الحكم والمواعظ للواسطي رقم ٧٣ .

^٤ عيون الحكم والمواعظ رقم ٣٦٢ .

بل إن الإمام علي عليه السلام كشف الحقيقة عن وجه الجاهل عندما خاطب الناس بقوله: (كن بعدوك العاقل أوثق منك بصديقك الجاهل) وأن العاقل وإن كان عدواً إلا أنه قد يرجى منه الخير ولو بعد حين أما الجاهل فلا خير فيه حتى وإن كان صديقاً فهو يضرك أكثر مما ينفعك.

إن هذه المجموعة من الآيات والروايات والحكم حول خطر الجهل وضرره في الدنيا والآخرة مما **يثبت** لنا حقيقة واحدة هو أن الإسلام سبق كل الأبحاث الحديثة والتجارب العلمية على أهمية العلم والمعرفة وضرر الجهل وما يخلفه من دمار شامل للإنسان.

ضرورة الوعي:

على المسلمين سنة وشيعة أكثر من أي وقت مضى أن يعوا مسؤولياتهم وأن يتعرفوا على عدوهم الحقيقي، وأن القضية الفلسطينية قضية مبدئية عند جميع المسلمين لا يمكن المساومة عليها ولا التنازل عنها مهما كانت الأحوال والظروف بل هي رمز عزهم وكرامتهم وشرفهم يجب أن توحدهم وترص صفوفهم.

وهنا ينبغي أن ألفت نظر المسلمين عموماً وشيعة أهل البيت خصوصاً إلى أن القضية الفلسطينية والدفاع عنها في نظر علماء الشيعة من الأمور الواجبة المؤكدة بل كما تقدم في فتوى الإمام آل كاشف الغطاء أن المجاهد عن فلسطين وبيت المقدس كالمجاهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله في بدر.

وليعلم تاريخياً أن علماءنا الأخيار وقفوا بكل قوة وجدارة في الدفاع عن فلسطين من أوائل هجرة الصهاينة إليها وكشفوا مخططاتهم الأثيمة، ولا أدل على ذلك أن من أسباب سقوط (شاه إيران) السابق هو ولاؤه لإسرائيل وقد أستعمل الشعب الإيراني المسلم هذه الورقة ضده ودلوا على انحرافه عن الإسلام وإن كان يدعي التشيع تاريخياً.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين وأصحابه المنتجبين ومن تبعهم بإحسان

إلى يوم الدين